الشراب

للكاتب الأمريكي: جون كولير John Collier

بدا «آلان أوستن» وهو يرتقي درجات سلم معتم ذي صرير في أحد الأحياء العتيقة... متوتراً مذعوراً كقطة مطاردة وما أن وصل إلى الطابق المنشود حتى أجهد عينيه في محاولة لقراءة الاسم المذكور له وسط تموجات كثيفة من ظلمة غلّفت أرجاء الدور برمته... وعثر بعد لأيٍ على ضالته فتنفس الصعداء.

واستجمع شتات شجاعته... دفع بالباب ـ كما أمر ـ فوجد نفسه في غرفة صغيرة ما بها من الأثاث سوى منضدة مطبخ... وكرسي هزاز وآخر عادي! وعلى أحد الجدران التي بهت لونها كانت مجموعة من الأرفف في مجملها تقريباً درزن زجاجات وبرطمانات وعلى الكرسي الهزاز جلس رجل مسن يطالع صحيفةً... ودون أن ينبس «آلان» ببنت شفة ناوله الكرت الذي كان يحمله:

ـ تفضل بالجلوس سيد «أوستن» ـ قال له العجوز في أدب جمّ ـ تسرني معرفتك.

ـ أصحيح أن لديك ـ سأله «آلان» ـ خليطاً معيناً له تأثيرات غير عادية؟

ـ سيدي العزيز ـ رد المسن ـ ليس لي في التجارة باع طويل أنا، لا أتعامل في المسهلات ومحاليل التسنين، على أنّ لِما أتاجر فيه تأثيراً حيوياً ولا أظن أن شيئاً من منتجاتي يمكن أن يندرج تحت مسمى «عادي».

ـ حسناً.. حقيقة الأمر أني... قال «آلان» على أن الرجل قاطعه قائلاً وهو يتناول من أعلى الرف زجاجة معينة:

ـ هذا مثلاً سائل عديم اللون والطعم ولا يمكن تمييزه إما وضع في مشروب ما... كما وأن آثاره يا عزيزي لا تبدو أثناء التشريح.

ـ أتعني أن تقول بأنه سمّ؟ سأله آلان في رعب!

ـ سمه «منظف قفازات» إن رغبت! قال العجوز دون اكتراث ـ قد تكون له كذلك خاصية تنظيف القفازات ما جربت ذلك آنفاً... من يدري... وإن شئت صديقي فسمّه «منظف الحياة»... ما أشدّ مطابقة ذلك للواقع إذ إن كثيراً من الأنفس بحاجة إلى تنظيف أحياناً.

ـ لا أريد أياً من ذلك ـ قال «آلان».

ـ ربما كان له ذات الفائدة... ـ قال العجوز ـ أتعرف كم يساوي؟

إنني أبيع الملعقة منه ـ وهو مقدار كافٍ تماماً ـ بخمسة آلاف دولار لا ينقص بنساً.

ـ أرجو أن لا تكون خلطاتك كلها بذات الدرجة من الغلاء ـ قال «آلان» بتخوف ظاهر!.

ـ كلا يا عزيزي ـ أبداً ـ قال المسن ـ لن يجدي نفعاً بيع كل نوع من أنواع الشراب ـ كإكسير الحب مثلاً ـ بالسعر ذاته إن من يطلبون «شراب الحب» وغالبيتهم من الشباب الغض الإهاب لايملكون غير اليباب وإن جاوزت قاماتهم هامات السحاب أملاً، ولو لم يكونوا كذلك لما احتاجوا إلى ذلك الإكسير أصلاً.

ـ سعيد بسماع ذلك ـ رد «آلان».

ـ أنا أتعامل في هذا السياق يا بني كالتالي:

ارضِ زبوناً بسلعة ما وسيعود لشراء سلعة أخرى إبّان احتياجه إياها ومهما ارتفعت قيمتها فسيعود لاشك فور تجمع المبلغ لديه ـ

ـ إذاً... ـ قال «آلان» ـ فأنت تبيع شراب المحبة.

ـ لو أنني لم أبع إكسير الحب ـ قال العجوز بكل حكمة السنين ـ وهو يتناول زجاجة أخرى ـ لما ذكرت الشراب الآخر لك... حينما تكون في وضع ملزم... يحتاج الزبون فيه إليك حقاً فإنه يكون بإمكانه حينئذ... أن يتصرف ضمن إطار من الثقة بالآخرين وأن يأتمنهم على أسراره.

ـ وهذا المشروب... إنه ليس مجرد... مجرد ـ قال «آلان».

ـ أوه كلا... ! ـ قال المسن ـ مفعوله دائم وأكيد... إنه يتعدى حدود النزوة العادية وإن كانت ضمن ذلك... أجل هي كذلك بكل دفئها وعمقها وحميميتها واندفاعها... وإصرارها وديمومتها!.

ـ عجباً! قال «آلان» وقد بدت على وجهه سيماء الدهشة وتوسطت عينيه نظرة علمية استكشافية تحليلية ـ غاية في الامتاع هذا الأمر برمته!.

ـ نعم... على أنه ينبغي أن تلحظ الناحية الروحية في خضم ذلك الزخم من دفق العواطف والاستجابة الفورية!

ـ بالتأكيد! قال «آلان»:

ـ إذ إن اللامبالاة ـ قال العجوز ـ ستغدو ولعاً وإخلاصاً، أما ما كانت تلقاك به من ازدراء فسيغدو ولهاً وتعلقاً.

اسقها جرعة صغيرة منه ـ وهو كما قلت لك غير مرئي إما مزجته مع العصائر أو الحساء ـ وستدهشك النتيجة... مهما كانت طائشة مستهترة فإن ذلك كله سيتلاشى ليحل محله هيام... تبديه لك ولن تطلب شيئاً إلا أن تبقى بقربك... أنت وحدك زوجاً لها.

ـ يصعب علي تصديق ذلك ـ قال «آلان» ـ إنها مغرمة بالحفلات.

ـ سوف تزهد فيها ـ قال المسن ـ وستغدو مصدر قلق لها وخشية أن تلمح حسناء هناك يخفق لها قلبك.

obeikandl.com

ـ تعني أنها ستغار عليّ؟ ـ صاح «آلان» في نشوة جذلى!.

ـ نعم سترغب أن تصبح كل شيء بالنسبة لك.

ـ وإنها لكذلك! على أن المؤلم أنها لاتأبه بذلك!.

ـ ستفعل عندما تذوق شيئاً من إكسير الحب هذا ـ ستصبح أنت وحدك بؤرة اهتمامها.

ـ رائع ـ صرخ «آلان»!.

ـ ستعتريها رغبة عارمة في معرفة كل ما تقوم به... وكل ما مر بك في يومك... وسترغب في معرفة كل دقيقة وجليلة عنك... لماذا ابتسمت فجأة... لم أنت حزين؟ و...

ـ فذاك لعمري هو الحب ـ صاح «آلان» مجدداً!

أجل... لسوف تعتني بك غاية، فتحاذر أن يمسَّك وهن أو نصب أو جوع، وإذا ما تأخرت ساعةً فإن الهلع سيمزقها شر ممزق، إذ إنها ستتصور بأنك قد أصبت بمكروه أو أن سيرانةً قد اختطفتك!.

ـ من الصعب جداً أن أتخيل زوجتي «دايانا» وقد أضحت ذلك المخلوق المثالي! علق «آلان» ونشوة انتظار الآتي تحلق به في عوالم من نور ونار وشك ويقين... والسعادة تهدهده كأم رؤوم.

ـ سوف لن تجهد خيالك فيما يختص بذلك ـ قال العجوز ـ ولأن «السيرانات» يطفن حولنا دائماً فلا تقلق إن هفوت إلى إحداهن قليلاً ذات يوم ـ لأن فتاة أحلامك ستغفر لك في نهاية الأمر... صحيح أن ذلك سيحدث في فؤادها جرحاً غائراً لكنها ستسامحك في نهاية المطاف إذ إن الحب العفيف يصنع المعجزات يا بني!.

ـ لن يحدث ذلك أبداً... أبداً! قال «آلان» بحماس.

ـ بالطبع لن يحدث ـ قال المسن ـ على أنه إذا ما وقع المحظور يوماً فلن تطلب الطلاق.. كلا! ولسوف تحملك ـ ما حييت ـ على أكف الراحة.

ـ وكم تريد ثمناً لذلك الشراب العجيب؟.

ـ ثمنه ليس غالياً ـ قال العجوز ـ «كمنظف القفازات أو الحياة».

كما يحلو لي أن أسميه كلا... قيمة ذلك الشراب هي خمسة آلاف دولار لاتنقص بنساً... ولن يتأتى شراء ذلك إلا لمن هو أكبر منك سناً إلى حدٍّ يخول له ارتكاب ذلك ـ على المرء أن يدخر طويلاً كيما يتمكن من جمع المبلغ اللازم لتلك المهمة.

ـ وماذا عن شراب الحب الشريف؟ مفتاح الدخول إلى عالم الزواج.

آه... ذاك ـ قال العجوز فاتحاً أحد أدراج طاولة المطبخ، مستخرجاً قارورة صغيرة ـ قيمتها دولار واحد فقط.

ـ لن أستطيع أبداً أن أفيك حقك من الشكر والامتنان! قال «آلان» وهو يتأمله في حبور فيما شرع المسن في سكب شيء من الشراب في القارورة.

ـ سياستي هي تطويق الأعناق بالجميل حتى إذا ما دارت رحى الأيام عاد المشتري إليّ لابتياع أشياء أخرى... أغلى بكثير! تفضل ستدهشك فعاليته!

ـ لك جم الشكر مجدداً... ـ إلى اللقاء.

وشيعه المسن بنظرات ذات مغزى وهو يقول:

ـ رافقتك السلامة.